

رؤى وتحليلات

بقلم: د. محمد إحسان
كبير الباحثين في جامعة بيل، وزير أسبق
لحقوق الإنسان، الأمين العام لمنظمة
تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية



لماذا لا تدخل إيران وتركيا في حرب أبدًا التوازن الاستراتيجي الأكثر رسوخًا في الشرق الأوسط

في منطقة تتبدل فيها التحالفات بسرعة، وتغدو الحروب بالوكالة أمرًا شائعًا، وتعيد المواجهات العسكرية رسم الحقائق السياسية كثيرًا، تبرز علاقة واحدة باستقرارها الالفت. فقد أمضت إيران وتركيا عقودًا وهما تتنافسان في معظم الساحات الجيوسياسية الكبرى، ومع ذلك تجنبنا باستمرار الانزلاق إلى حرب مباشرة. وهذا التقييد ليس نابغًا من صداقة، ولا من تقارب أيديولوجي، ولا من ثقة دبلوماسية. بل يعكس أحد أكثر التوازنات الاستراتيجية رسوخًا في الشرق الأوسط، حيث تدرك الدولتان أن المنافسة تخدم مصالحهما، بينما تهدد الحرب أسس النفوذ الإقليمي لكل منهما.

يُرجع كثير من المراقبين غياب الصراع إلى الردع العسكري أو الروابط الاقتصادية وحدهما. ورغم أهمية هذين العاملين، فإنهما لا يفسران المنطق الاستراتيجي الأعمق الذي شكّل سلوك إيران وتركيا عبر أجيال. فالعلاقة بينهما يمكن فهمها على نحو أفضل بوصفها تنافسًا مضبوطًا بعناية، تسعى فيه القوتان إلى توسيع النفوذ من دون تجاوز عتبة المواجهة المباشرة. إن تنافسهما حاد، لكنه محسوب بدقة.

وفي قلب هذا التوازن يقف ميزان قوة لا يعتقد أي طرف أنه قادر على قلبه حسماً. فقد استثمرت إيران بكثافة في القدرات غير المتماثلة، بما في ذلك الصواريخ الباليستية، وشبكات الوكلاء، والعمليات السيرية، والحرب غير التقليدية. وهذه الأدوات ليست موجهة بالضرورة إلى كسب الحروب التقليدية، بل إلى رفع كلفة أي مواجهة إلى مستوى يتجاوز القبول. أما تركيا، فلديها واحد من أكثر الجيوش تطورًا تكنولوجياً في المنطقة، مدعومًا بقوة جوية حديثة، وأنظمة متقدمة للطائرات المسيّرة، وقوة برية كبيرة، والمزايا الاستراتيجية التي يمنحها الانضمام إلى حلف شمال الأطلسي. وتمتلك كل من الدولتين نقاط قوة تعادل مباشرة مزايا الأخرى، مما يجعل النصر العسكري أمرًا غير مؤكد وقد يكون كارثيًا.

ويُنتج هذا الردع المتبادل حقيقة استراتيجية مهمة: لا طهران ولا أنقرة تعتقدان أن حربًا مباشرة ستجعلهما أقوى مما كانتا عليه. وحتى صراع محدود قد يتطور إلى مواجهة طويلة تستنزف الموارد العسكرية، وتضعف الاقتصادين الداخليين، وتتيح للقوى الخارجية استغلال حالة عدم الاستقرار. إن احتمال النصر لا يوازي يقين الخسائر الكبيرة.

وتعزّز الجغرافيا هذا الحساب الاستراتيجي. فالحدود الجبلية الفاصلة بين إيران وتركيا شكّلت تاريخيًا أحد أكثر الحواجز الطبيعية فاعلية في أوراسيا. وأي هجوم واسع النطاق عبر هذه التضاريس سيتطلب موارد لوجستية هائلة، مع تعريض القوات المهاجمة لصعوبات عملياتية شديدة. وقد غيرت التكنولوجيا العسكرية الحديثة كثيرًا من أوجه الحرب، لكن الجغرافيا ما تزال تفرض حدودًا يصعب تجاوزها. فالحدود هنا صعبة الاختراق، وصعبة الإمداد، والأصعب من ذلك كله الاحتفاظ بها. ولذلك تعمل الجغرافيا ليس فقط كعائق مادي، بل كرادع استراتيجي بحد ذاته.

ويضيف التاريخ طبقة أخرى من الاستقرار غالبًا ما يُغفلها الباحثون. فعلى خلاف كثير من الخصومات المعاصرة في الشرق الأوسط، حُسم النزاع الإقليمي بين إيران وتركيا فعليًا قبل قرون. فقد أصبحت الحدود التي أُقيمت بعد الصراعات العثمانية الصفوية واحدة من أكثر الحدود الدولية رسوخًا في المنطقة. ورغم أن الدولتين تحدّتا نفوذ بعضهما البعض خارج حدودهما، فإن أيًا منهما لم يشكك بجدية في شرعية الحدود ذاتها. وقد أزال هذا التسوية التاريخية أحد الأسباب الرئيسية للحروب بين الدول. فتحوّل التنافس من صراع على الأرض إلى صراع على النفوذ.

وهذا الفرق حاسم، لأن النفوذ يمكن التفاوض بشأنه أو تقاسمه أو التنافس عليه بصورة غير مباشرة، بينما الأرض غالبًا لا يمكن ذلك.

وبناءً على ذلك، أصبحت إيران وتركيا بارعتين في المنافسة غير المباشرة. وتُعد سوريا المثال الأوضح على ذلك. فقد دعمت طهران وأنقرة فصائل متعارضة، وسعتا إلى أهداف سياسية متناقضة، ووجهت كل منهما انتقادات متكررة لسياسات الأخرى الإقليمية. ومع ذلك، أظهرت الحكومتان مراثًا استعدادهما للتفاوض عندما هدد التصعيد الاستقرار الإقليمي.

الأوسع. وظهرت أنماط مشابهة في العراق، وجنوب القوقاز، وحتى في آسيا الوسطى. وبدلاً من المواجهة المباشرة، تتنافس الدولتان عبر الدبلوماسية، والاستخبارات، والحلفاء المحليين، والاستثمارات الاقتصادية، والضغط السياسي. لقد أصبحت المنافسة بالوكالة بديلاً عن الحرب بين الدول.

وتعزز الاعتبارات الاقتصادية هذا التقييد. فعلى الرغم من العقوبات والخلافات الدبلوماسية والأزمات الإقليمية، بقيت التجارة بين إيران وتركيا ذات قيمة استراتيجية لكلا البلدين. فصادرات الطاقة، والتجارة العابرة للحدود، وممرات النقل، والتبادلات المالية كلها تخلق مصالح متبادلة لا ترغب أي حكومة في تدميرها. وقد مثلت تركيا مرآة منفذًا تجاريًا مهمًا لإيران خلال فترات العزلة الدولية، بينما تظل إيران مصدرًا مهمًا للطاقة بالنسبة إلى الاقتصاد التركي. أما الحرب فستعطل هذه العلاقات فورًا، وتفرض كلفة اقتصادية لا يرغب أي من الطرفين في تحملها.

كما أن البيئة الدولية الأوسع لا تشجع المواجهة العسكرية. فعضوية تركيا في حلف شمال الأطلسي لا تضمن تلقائيًا تدخل الحلف في كل سيناريو ممكن، لكنها تغيّر حسابات إيران الاستراتيجية جذريًا. فأى هجوم على تركيا سيُدخل عنصر عدم اليقين بشأن احتمال انخراط قوى عسكرية غربية، مما يرفع المخاطر أمام طهران بشكل كبير. وقد أظهرت القيادة الإيرانية باستمرار تفضيلها لتجنب المواجهات التي قد تؤخذ خصومًا متعددين ضدها. وهذه الضبابية الاستراتيجية وحدها تشكل رادعًا قويًا.

وربما يكون العامل الأكثر تقليلاً من شأنه هو أن الحكومتين تشتركان في الأولوية الحاسمة نفسها: بقاء النظام. فبرغم اختلافاتهما الأيديولوجية، لا ترى أي من القيادتين الأخرى تهديدًا وجوديًا يتطلب الإزالة العسكرية. تسعى إيران إلى الحفاظ على الدولة الثورية مع توسيع نفوذها الإقليمي. بينما تسعى تركيا إلى الاستقلال الاستراتيجي والقيادة الإقليمية والربط الاقتصادي عبر مناطق متعددة. وغالبًا ما تتعارض هذه الطموحات، لكنها لا تستلزم تدمير الدولة المقابلة. إن أهدافهما تنافسية وليست وجودية.

وهذا يفسر لماذا لا تتبع الأزمات بين طهران وأنقرة غالبًا أنماط التصعيد التي نراها في أماكن أخرى من المنطقة. فالتوتر السياسي يرتفع، وتشتد المنافسة بالوكالة، وترداد اللغة الدبلوماسية عدائية، ثم تعود الدولتان تدريجيًا إلى التفاوض. ولا تخلط أي منهما بين التنافس وبين مبرر للحرب الشاملة.

والدرس الأعمق هنا هو أن إيران وتركيا أنشأتا، بصمت، تفاهةً استراتيجية غير مكتوب. فهما تقبلان بالتنافس عبر الشرق الأوسط، وتحدي نفوذ بعضهما البعض، ودعم أطراف إقليمية متعارضة. لكنهما تدركان أيضًا أن الحفاظ على التوازن العام أكثر قيمة من محاولة قلبه بالقوة. وقد صمد هذا الفهم أمام الثورات والانقلابات والحروب الإقليمية والتحالفات المتغيرة والتحول الكبري في النظام الدولي.

وفي شرق أوسط كثيرًا ما يتسم بعدم الاستقرار، تمثل العلاقة بين إيران وتركيا شيئًا نادرًا للغاية: خصومة تُدار بضبط استراتيجي بدلًا من التصعيد العاطفي. فمنافسة الطرفين حقيقية، ومستمرة، وأحيانًا حادة، لكنها تبقى محدودة بإدراك مشترك أن الحرب المباشرة ستضعف القوتين معًا، بينما ستقوي الجميع سواهما. وهذا، أكثر من الدبلوماسية أو حسن النية، هو ما يفسر لماذا أصبحت إحدى أقدم الخصومات في المنطقة أيضًا من أكثرها استقرارًا.

شكراً لكم

